﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر: 39 - 40]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

تنبيه المخاطَبين إلى عزمِ إبليس على إغواء النّاس منذُ خَلْقِ آدمَ

لمّا أفهم ما تقدَّمَ الحكمَ بإغوائِه، لكونِه رجيمًا وملعونًا، فتضمَّن هذان الوصفان أنَّ اللّه تعالى خلقَ في نفسِ إبليس مقدرةً على الإغواء، ولمّا حكمَ اللّه عليه باللَّعنِ؛ أيسَ من الهدى، كان السامع كأنَّه قال: فماذا قال إبليس؟ فجاء قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ثمَّ استثنى منهم عباد اللّه المخلَصين؛ لأنَّه علمَ أنَّ كيدَه لا يعمل فيهم، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾: أَصْلُ (زين) يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيْءِ وَتَحْسِينِهِ[2]. الزَّيْنُ نَقِيضُ الشَّيْنِ، وزانَهُ وزَيَّنَهُ بمعنًى، وهو تصيير الشَّيء زَينًا، أي: حَسَنًا، والزِّينَةُ الحقيقيَّة: ما لا يشين الإنسان في شيءٍ من أحواله لا في الدُّنيا، ولا في الآخرة، وتَزْيِينُ اللّه للأشياء قد يكون بإبداعها مزيَّنة، وإيجادها كذلك، وتَزْيِينُ الناس للشَّيء: بتزويقهم، أو بقولهم، وهو أن يمدحوه، ويذكروه بما يرفع منه[3]. والزّينة أيضًا: جامعٌ لكُلِّ ما يتزيَّن به النّاسُ، وَما يَحْسُنُ في أَنْظارِهِم مِنْ طَرائِفِ الدُّنْيا، كالْحُلِيِّ والْجَواهِرِ[4]. والمقصود بالتَّزْيين في الآية: التَّحْسِينُ، أي: جَعْلُ الشَّيْءِ زَيْنًا، أي: حَسَنًا[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/58.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(3) الراغب، المفردات: (زين).
(4) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (زين).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/50.

2) ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾: أصلُ (غوي): يَدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ وإظْلام الأَمْرِ[1]، الغَواية - بفتح الغين -: الضَّلال واتِّباع الهوى والانهماك في الباطل، ورجلٌ غاوٍ وغَوٍ وغَوِيٌّ وغَيّان: ضالٌّ، وأغْواه هوَ[2]، والغَيُّ: جهل من اعتقاد فاسد[3]، وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ إشارةٌ إلى غَوايَةٍ يَعلَمُها اللّه، وهي الَّتي جَبَلَهُ عليها، والمقصود بالإغواءِ في الآية: جعْلُهُم غاوِينَ، أي: ضالِّينَ[4].

3) ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾: أصلُ (خلص): تَنْقِيَةُ الشَّيءِ وَتَهْذِيبُهُ ممّا يشوبه[5]، خَلَص الشَّيءُ، بِالفتْح، يَخْلُص خُلوصًا وخَلاصًا؛ إذا كانَ قَدْ نَشِبَ، ثُمَّ نَجا، وسَلِم[6]. وأَخْلَصه، وخَلَّصه، وأخْلَص للّه دِينَه: أَمْحَضَه، وأَخْلَصَ الشَّيءَ: اخْتارَهُ، والمُخْلَصون المُخْتارون، والمُخْلِصون المُوَحِّدون، والخالِصةُ: الإخْلاصُ، وخَلَص إليه الشَّيءُ: وَصَلَ، وخَلَصَ الشَّيءُ، بِالْفَتْح، يَخْلُصُ خُلوصًا، أي: صارَ خالِصًا[7]. والمرادُ بالإخلاص في الآية: الإفرادُ وتصفِيةُ الشَّيءِ ممّا يُنافِيه، أو يُفسِدُهُ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

العــبــوديَّــة الـصّـادقـة لله تعالى أفضلُ ما اتَّصف به طائع

قال إبليسُ: ربِّ بسبَبِ إغوائِك لي لَأُحَسِّنَنَّ للنّاس مَعصيتَك، ولأُرَغِّبنَّهم فيها، ولأشغَلنَّهم بزينةِ الدُّنيا عن طاعتِك، ولأُضِلَّنَّ جميعَ النّاسِ عن طريقِ الحَقِّ، إلّا عبادَك الذين اختَرتَهم لهدايتِك، وطَهَّرتَهم من الشِّركِ والرِّياءِ فصاروا مُخلَصينَ، فلا أستطيعُ إغواءَهم[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوي).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(3) الراغب، المفردات: (غوي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خلص).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلص).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (خلص).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 14/68، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/28، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سببُ إيرادِ الحكاية عن إبليس:

احتقارُ إبليس وبغضُه من الإيمانِ

ذُكِرَتْ هَذِهِ الْحالَةُ مِنْ أَوْصافِ إبليس - في قوله تعالى: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩﴾ - لإعلامِ بني آدم عمّا يضمره لهم، وما يبغيه من الكيدِ فيهم؛ بَعْثًا لِكَراهيَّتِه في نُفوسِ الْبَشَرِ الَّذين يَرَوْنَ أَنَّ حَقَّ النَّفْسِ الْأَبِيَّةِ أَنْ تَأْنَفَ مِنَ الْحَياةِ الذَّميمَةِ الْمُحَقَّرَة، وَذَلِكَ شَأْنُ الْعَرَبِ، فَإذا عَلِموا هَذا مِنْ حالِ إبْلِيسَ؛ أَبْغَضوهُ، واحْتَقَروهُ، فَلَمْ يَرْضَوْا بِكُلِّ عَمَلٍ يُنْسَبُ إِلَيْهِ[1].

دلالة النِّداء في قول إبليس: ﴿رَبِّ﴾:

إبليس كافرٌ بألوهيَّة الله تعالى مقرٌّ بربوبيَّته

نادى إبليس بقوله: ﴿رَبِّ﴾ - في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ - ليفيدَ أنَّه مع كفرِه يقرُّ بالربوبية والخلق، لعلمِه بأنَّ اللّه تعالى هو الموجد الواحدُ الأحد، وأنَّ أيَّ طلبٍ في هذه الحياة لا يكون إلّا من ربِّ العالمين، وفيه إشعارٌ بأنَّ الكفر أنواعٌ، وأنَّه ليس كلُّ من آمن بأنَّ اللّه هو الخالق المالكُ لهذا الخلق مؤمنًا حتَّى يَقِرَّ بألوهيَّة اللّه، ولا يعترض عليه سبحانه، فقد علم إبليسُ ربوبيَّةَ اللّه تعالى، وضلَّ على علم؛ لأنَّه لم يطعْ ربَّهُ.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾:

اجتهادُ إبليس في إغواء النّاس لإفسادِهم، كما فسَد وغوى

يُحتمل أن تكونَ الباء للقسم، أي: بسلطانِك عليَّ، ونفاذ أمرِك فيَّ لأزيِّنَنَّ لهم في الأرضِ، ويدلُّ على أنَّها باءُ القسم قوله تعالى حكايةً عن إبليسَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾ [ص: 82]، كما يقالُ: فباللّه لأفعلنَّ، وتكون اللّام في ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ جوابَ القسم، والمعنى: أقسم بإغوائك إيّاي؛ لَأُزَيّنَنَّ لهم، وقد يقالُ: لم يكن إغواءُ اللّه تعالى لإبليسَ ممّا يجب أن يقسَم به، لولا فرطُ جهله، ويجابُ بأنَّ القسمَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/48.

في المعنى صحيح؛ لأنَّ الإغواء ممّا يتفرَّد الحقُّ بالقدرة عليه، ولا يشاركه فيه أحدٌ؛ وللاهتمام بهذا السبب قدَّمه على جواب القسم الدالِّ على المقسَم به، ويحتمل أن تكونَ الباء سببية، والمعنى: بسبب وُقوعِي في الغَيِّ وتسبُّبك بإغوائي؛ أقسمُ لأَجْتَهِدَنَّ في تزيين القبائح والمعاصي لهم في الأرضِ وفي إغوائهم؛ حتَّى يَفْسُدوا بسببي، كما فَسَدْتُ بسببهم، كما تحتمل أن تكون للمجازاة، وفيها معنى السببية، والمعنى: فبإغوائك لي لأُزَيِّنَنَّ لهم[1].

دلالة (ما) المصدرية في قوله: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾:

اتِّصافُ إبليس بحقيقةِ الإغواء وكمالِه

(ما) هنا مصدرية[2]، لتفيدَ حصولَ حقيقةِ الإغواء لإبليس من غيرِ نظرٍ إلى أيِّ وصفٍ آخرَ للإغواء الذي اتَّصفَ به، ومن غيرِ تقييدٍ بوقتٍ، ليفيد الوصفُ بالمصدر اتِّصافَه بالإغواء المطلق المضمَّن معنى الكمالِ.

دلالة صيغة أفْعَلَ في ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾:

نسبةُ إبليس إلى الإغواء بسببِ اعتراضِه على اللهِ تعالى وتكبُّرِه على أمرِه سبحانه

صيغة (أفعل) للنِّسبةِ، مثل بناء (فعَّل) كفسَّقَ للنسْبَةِ إلى التَّفسيق، فيكونُ معنى ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾ نسبتني إلى الإغواء، لاعتراضِه على اللّه تعالى وعدم امتثالِه، أو تكون الصِّيغة حملًا على الغيِّ أي: لّما أمره اللّه تعالى بالسجود لآدم؛ عند ذلك ظهر غيُّ إبليس وكفره، فجاز أنْ يضيف ذلك الغيَّ إلى اللّه تعالى باعتبار أنَّ غيَّه ظهر؛ لّما اعترض على أمرِ اللّه، وتكبَّر على آدم، فلم يسجد، ويحتمل أن تكون الصيغة على أصلِها، والمعنى: أغواه اللّه تعالى بما قضى من حكمتِه وتقديره[3].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/103، ومكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 6/3895، والماوردي، النكت والعيون: 3/160، والقشيري، لطائف الإشارات: 2/271، والواحدي، التفسير البسيط: 12/605، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/362، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/37، والبقاعي، نظم الدرر: 11/58.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/7، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/348.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾:

عُبِّرَ بالإغواء للإشعار بانهماكِ إبليس في الباطلِ، وأنَّه قد فسد فسادًا بحيث لا يُرجى صلاحُه، وأنَّ ظُلمَةَ الكفرِ والتكبُّر قد غشيَتْهُ، فلا يرى طريقًا إلى الرُّشدِ، ففيه تنبيهٌ لبني آدمَ من وسوستِه والانخراطِ في غيِّه، فإنَّه لا يرى سوى الباطلِ، ولا يأمرُ إلّا به، فهو على الضَّلال ومنهمكٌ به.

تنبيهُ بني آدمَ إلى ضلالِ الشَّيطان الذي لا يرى سوى الباطلِ، ولا يأمرُ إلّا به

فائدة تتابع التأكيد في قولِه: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾:

تتابعَ التأكيدُ في ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾؛ لاقترانِ الفعل باللّام؛ لِتأكيدِ الفعل وتقريرِه، سواء أكانت اللّامُ جوابَ قسمٍ أم موطِّئةً للقسم على الخلاف في دلالة الباء في قولِه: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ - كما تقدَّم - كما تقوّى هذا التأكيد باقترانِ الفعل بنون التأكيد الثقيلة، ليفيدَ تقريرَ فعلِ التَّزيين وإصرارَه عليه ليفتنَ بني آدم.

إصرارُ الشَّيطان على التَّزيين لبني آدمَ وفتنتِهم

نكتة التَّعبير بالفعل ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾:

لمّا كان لفظُ الزِّينة اسْمًا جامِعًا لِكُلِّ شَيْءٍ يُتَزَيَّن بِهِ، وكان التَّزيين بمعنى تحسين الشَّيء في الظّاهرِ ليكونَ زينًا مقبولًا محبَّبًا مرغوبًا في الطَّبعِ والعقلِ عندَ الآخرين[1]، وكان الفعل على صيغة (فعَّل) المفيدة للتَّكثير؛ دلَّ التَّعبير بلفظِ ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ على اجتهادِ إبليس في تحسين القبائحِ وتزويقِها لبني آدمَ بأيِّ شيءٍ يُتزيَّن بها، لأجلِ إغوائهم وإضلالِهم، فلكلِّ شيءٍ زينتُه الخاصَّةُ به، وأفادَت الصيغةُ تكثُّرَ التَّزيين منه وتكرارَه واستمرارَه، أي: لأزيِّنَنَّ لهم تزيينًا عظيمًا[2]، كثيرًا متكرِّرًا مستمرًّا.

لكلِّ شيءٍ زينتُه الخاصَّة به

---

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (زين)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/535، والبقاعي، نظم الدرر: 11/59.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/58.

بلاغة حذف مفعول ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾:

التَّزيين لأجلِ الإغواء والإضلالِ لا يكون إلّا من إبليسَ وأعوانِه

حُذِفَ مفعولُ الفعل المتعدي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾؛ للإيذان بإثباتِ التَّزيين في نفسِه فعلًا لإبليس، وأنَّ من شأنِ التَّزيين الذي يقصد منه الإضلالُ أن يكون لإبليسَ، بمعنى: أنَّ التَّزيين للإغواء لا يكون إلّا منه، ويحتمل أن يكون حذف المفعول لإفادة العموم، أي: لأزيِّنَنَّ لهم كلَّ ما يكون في الأرضِ من الباطلِ قصدًا لإضلالِهم، والمعنى: لأزيّنَنَّ لهم المعاصي وأحسِّنها، وأحبِّبها لهم، ويحتمل أن يتناولَ التَّزيينُ كلَّ ما يشغلُ عن طاعةِ اللّه وعبادتِه، فيكون التَّزيين بِفِعْلِ المَعاصِي، وبِشَغْلِهِمْ بزينة الدنيا عن فعل الطاعة[1]، ولا مانع من إفادة كل هذه المعاني.

فائدة اللّام في قولِه: ﴿لَهُمْ﴾:

تفرُّغُ إبليس لتحسين الباطل لبني آدمَ وتزيينِه لهم

اللّامُ على معنى الاختصاصِ، بمعنى: أنَّ تزيين إبليس الباطل لبني آدم مختصٌّ بهم، والمعنى: أنَّه متفرِّغٌ لتحسين الباطلِ لهم وتزويقِه حتَّى يحبِّبَه لهم.

دلالة الضَّمير في قولِه: ﴿لَهُمْ﴾:

إضمارُ إبليسَ الإغواءَ لبني آدمَ منذُ أن ظهرَ تكبُّرُه وكفرُه

الضَّميرُ عائِدٌ عَلَى غَيْرِ مَذْكورٍ في الكلام، بَلْ يعود عَلَى ما يُفْهَمُ مِنه، وَهوَ ذُرِّيَّةُ آدَمَ؛ للإشعارِ بأنَّ ذرِّيَّة آدمَ في تفكيرِه، وأنَّه قد أضمرَ لهم الإغواءَ، فهو عازمٌ على إضلالِهم وجرِّهم إلى الكفرِ والباطلِ بعدَ ظهورِ تكبُّرِه وكفرِه[2].

دلالة الحال بقولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تزيين إبليس لبني آدم محصورٌ بوقتِ عيشِهم في الأرضِ

لمّا كان الجار والمجرور في موضعِ الحال؛ أفادَ أنَّ تزيين إبليس لبني آدم مقيَّدٌ بوقتِ وجودِهم في الأرضِ وعيشِهم فيها، ويلزم منه أن يكون الكلامُ على الكناية بمعنى: لأزَيِّنَنَّ لهم في الدنيا، كما يأتي.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/103، والواحدي، التفسير البسيط: 12/606، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/362، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/27، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/477.

تزيين إبليس لبني آدمَ يجعلهم يعملون في الأرضِ على أنَّها موضعُ الخلدِ والبقاء

سرُّ التَّعبير بقولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

ذُكِرَ الجار والمجرور ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليشير اللَّعينُ إلى أنَّه قادرٌ على الاحتيال لآدمَ وتزيينِ الأكل له من الشجرة في السَّماء، وهو على التَّزيين لذرِّيَّته في الأرض أقدرُ، ويحتمل أن يكونَ ذكر ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كنايةً عن الدُّنيا؛ لأنَّ الأرضَ محلُّ متاعِ الدُّنيا ودارُها، ففي التَّعبير إشعارٌ بأنَّه يزيِّن لهم المقامَ في الأرضِ في أعينهم، ويوسوس لهم أنَّ الزِّينةَ في الأرضِ وحدها، كي يطمئنوا إليها، ويعملوا فيها على أنَّ مقامَ الخلدِ فيها، فكأنَّهم يخلدون إلى الأرضِ طمعًا في ما زيَّنه إبليس لهم، كما أنَّ في التَّعبير بحرف الجر ﴿فِي﴾ إشارةً إلى أنَّ الأرضَ مستقرُّ التزيين، وأنَّ تزيينه متمكِّنٌ في الأرضِ مثل تمكُّن المظروفِ في ظرفِه[1].

حرصُ إبليسَ على المبالغةِ في غوايةِ بني آدمَ واجتهادُه فيها

بلاغة المجاز في قولِه: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾:

لمّا كانت الغوايةُ لا تكون إلّا بإذن الله تعالى؛ كان المعنى لأحملنَّهم على الغواية، فيكون الكلام على طريق المجاز العقلي بإسناد الغواية إلى سببِها[2]، للإشعار بالمبالغة في حرصِ إبليس على غوايةِ بني آدمَ واجتهادِه فيها.

تزيين المعاصي والانغماسُ فيها طريقٌ إلى الغوايةِ

دلالة الضَّمير في قولِه: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾:

يعودُ الضَّمير على ما عادَ إليه الضَّمير في قولِه: ﴿لَهُمۡ﴾، بما اتَّصف به من تزيين إبليس لهم، والمعنى: لأغوينَّ بني آدم الذين زيَّنتُ لهم الشَّهواتِ والمعاصي، ففيه تأكيدٌ على أنَّ التَّزيين سببٌ للإغواء.

أوَّل الضَّلالِ استحسانُ الباطلِ

مناسبة العطف في قولِه: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾:

ورد العطف في الجملتين على معنى: أنَّ حصولَ المعطوفِ عليه سببٌ لِوقوعِ المعطوف، أي: إنَّ الإغواء لا يكونُ، ولا يحصل حتَّى يكونَ

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/221، والبروسوي، روح البيان: 4/467، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/293.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 5/293، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/159.

التَّزيين، ليفيدَ أنَّ تزيين إبليسَ لبني آدمَ سببٌ لإغوائهم، فأوَّلُ الشَّرِّ استحسانُه، ثمَّ يأخذُهم إلى الضَّلال عن طريق ما يستحسنون، ويشتهون[1]، ففيه تحذير النّاس من خطرِ تزيين إبليس للقبائحِ وتحسينِه وجوهَ الباطلِ.

فائدة مجيء: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾:

لمّا كان لفظ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ تأكيدًا للضَّمير في ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾؛ دلَّ على أنَّ إبليسَ قصدَ الاستغراقَ في إغوائِه إلّا من استثناه، ويحتمل أن يكون التأكيد محمولًا على الضَّمير في ﴿لَهُمۡ﴾ أيضًا، فيكون قد قصد استغراق التَّزيين والإغواء لجميعِ بني آدمَ إلّا من استثناهم، وينبني عليه حكم الاستثناء، كما يأتي الكلامُ عندَ بحثِ دلالة الاستثناء في الآية.

عزمُ إبليسَ على إغـواء جميع بـني آدمَ إلّا من استثناهم من عبادِ الله المخلَصين

بلاغة التَّعبير بالاستثناء في الآية:

لمّا قال تعالى حكايةً عن إبليس: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾؛ جَعَل المُغوين هُمُ المستثنى منه، أي: هم الأصل، واستثنى منهم عباد الله المُخْلَصِينَ؛ لأنَّ عزيمتَهُ منصرِفةٌ إلى الإغواء، فهو الملحوظ ابتداء عنده، على أنَّ المُغوين هم الأكثر، وهم كذلك في الواقع، وعكسُهُ ما جاء في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾، فإنَّه تعالى جعلَ عبادَه هم الأصلَ، وإن كانوا هم الأقل في الواقع[2].

من يقصدُ الإضلالَ يرى الضالّين أكثر، ومن يريدُ الهدايةَ يرى المهتدين أكثر

دلالة الإخراج لِلمستثنى بيَن القلّة والكثرة:

الأصلُ في الاستثناء أن يكون المستثنى فيه أقلَّ من المستثنى منه، ولكنَّه قد يكونُ أقلَّ أو أكثرَ[3]، فقد جاء استثناء عباد الله المخلصين ممَّن يغويهم إبليس، كما جاء استثناء من يتَّبع إبليس من عبادِه

الكثيرُ من بني آدمَ يستجيب لإغواءِ الشَّيطانِ، وقليل منهم يخلصُ لله تعالى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4087.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/50.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/29.

المؤمنين، فالاستثناء لا يُشْعِرُ بقلَّة المستثنى بِالنِّسبة لِلْمُسْتَثْنَى مِنْهُ وَلا الْعَكْسِ، ولكن لمّا أكَّدَ إغواءَ بني آدمَ بقولِه: ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ كانَ استثناءً من عامٍّ مؤكَّد، والاستثناء من العامِّ المؤكَّدِ فيه دليلٌ على أنَّ الكثرةَ هي التي استجابت لإغوائِه، والقلَّةَ هي التي أخلصت للّه تعالى، ولمّا ذكرَ اللّه تعالى هَذا الكلامَ من غيرِ إنكارٍ على إبليسَ؛ دلَّ على صِدْقِهِ فيما قال[1].

فائدة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ﴾:

عِـبـادُ الـلـه المخـلَـصـين لا يـعـمـلُ فـيـهـم إغواءُ الشَّيطانِ

أفاد الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾ إثباتَ الإغواء وحده، أو التَّزيين والإغواء معًا - على تنوُّعِ التَّوجيه في دلالة الاستثناء كما تقدَّم - لجميعِ بني آدمَ ونفيه وحده أو نفيهما معًا عن عباد اللّه المخلَصين حصرًا، بمعنى اختصاصِ عباد اللّه المخلَصين بأنَّ تزيينَ إبليسَ وإغواءَه لا يصيبُهم، والمعنى: إلّا عبادَك منهم المخلَصين، فلا يعمل فيهم تزييني ولا إغوائي.

دلالة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ﴾:

عـنـايـةُ الـلـه بـعـبـادِه المخـلـصـين تمنعهم من الوقوع في الغيِّ مـع احـتـمـالِ تزيينِه

يحتمل أن يكون الاستثناء من مجموع المعطوف والمعطوف عليه، والمعنى: استثناء عباد اللّه المخلصين من تزيين الشيطان وإغوائه، أي: فلا يقدر على التَّزيين لهم ولا إغوائهم بسببِ عبادتِهم للّه وإخلاصِهم له سبحانَه في توحيدِه، كما يحتمل أن يكون ﴿إِلَّا عِبَادَكَ﴾ مستثنًى من المعطوف فقط، أي: من الإغواء لا من التزيين، فعباد اللّه المخلَصون يُزيِّنُ لهم، ولا يغويهم، ولا يعملُ فيهم كيدُه؛ لأنَّ التَّزيين: هو تحسينُ القبائحِ - كما تقدَّم - والإغواءَ: هو الحمل على الوقوع فيها، فالإغواء يستلزم الفعلَ والتَّزيين لا يستلزم، فعناية اللّه بهم تمنعهم من الوقوعِ في الغيِّ، وإن زَيَّنَ إبليسُ الغيَّ لهم[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/50، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4088.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/5، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79.

الإشارة بالاستثناء إلى تحقير الكذب:

الكذبُ في غاية الخساسةِ

الذي حمل إبليس على ذكر الاسْتِثْناءِ هو ألّا يَصِيرَ كاذِبًا في دَعْواهُ، فَلَمّا احترَزَ عَنِ الْكَذِبِ؛ دلَّ على أنَّ الْكَذِبَ في غايَةِ الْخَساسَةِ[1].

دلالة الإضافة في قولِه: ﴿عِبَادَكَ﴾:

تشريفُ عبادِ الله المخلصين وتكريمُهم بإضافتِهم إلى الله تعالى

الإضافة على معنى الاختصاص؛ لإفادةِ تشريفِهم باختصاصِهم بكونِهم عبادًا لَه سبحانه دونَ غيرِه، واختصاصِهم بكونِهم عبادًا له سبحانه دونَ غيرِهم، والمعنى: إلّا عبادَكَ المشرَّفين المكرمين المعظمين بإضافتهم إليك[2].

بلاغة تقديم ﴿مِنۡهُمُ﴾ في الآية:

مَن أغواهم إبليسُ كانوا يستطيعون الإفلاتَ من غوايتِه؛ لو أخلصوا له تعالى

في قولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، تقدَّم ﴿مِنۡهُمُ﴾ على متعلَّقِه ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، والتَّقدير: إلّا عبادكَ المخلصين منهم، وأفاد تقديم الجارِّ والمجرور الذي هو في موضعِ الحال تخصيصَهم، أي: إنَّ لهم مزيةً على سائر من سعى إبليس إلى إغوائهم، كما أشعر التَّقديم أنَّ العباد المخلصين هم من نفسِ طينةٍ من أغواهم، وأنَّ لهم نفسَ صفاتِ بني آدم، لدلالةِ (مِنْ) في ﴿مِنۡهُمُ﴾ على التَّبعيض من الضَّمير في ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾، فيفيد أنَّ مَن أغواهم إنَّما كان لتفريطٍ منهم، بقبولِهم التَّزيين وحبِّهم له، وأنَّهم كانوا يستطيعون الإفلاتَ من غوايتِه؛ لو عبدوا اللّٰه تعالى، وأخلصوا له.

سبب ذكرِ البدلِ في قولِه: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾:

عبادُ الله المختصِّين به تعالى لا يكونونَ إلّا مخلَصين

لمّا كان قوله: ﴿عِبَادَكَ﴾ يفيد أنَّهم لا يميلون عن اللّٰه تعالى إلى شيءٍ سواه؛ لِدلالة الإضافة على معنى الاختصاص، وكان معنى المُخلَصين: أنَّ اللّٰه تعالى أخلصهم لعبادتِه؛ جاء ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بدلًا من ﴿عِبَادَكَ﴾؛ ليكون البدل على معنى الإيضاح والبيانِ للمبدلِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/144.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/59.

منه ﴿عِبَادَكَ﴾، وللاهتمامِ بالبدلِ، فإنَّ وصف المخلَصين لا يقال إلا بعد أن يكون للّه فيهم صنعٌ، ولهم به اختصاصُ تشريفٍ وفضائلُ اختصَّهم بذلك؛ برحمة اللّه وفضله، ففيه تنبيهٌ إلى أنَّ عبادَ اللّه لا يكونونَ إلّا مخلَصينَ، أي: من شأنِهم أن يكونوا كذلك[1].

نكتة التَّعبير بلفظِ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾:

لا يُغْوِي الشَّيطانُ عبادَ اللّه؛ لأنَّ اللّه طهَّرهم، ولأنَّهم أخلصوا له تعالى

كان الظّاهر أن يقال: إلّا عبادَك منهم من لا أغويه؛ لأنَّ الكلام في الإغواء وإخراجِ من لا يغويه من المستثنى منه، فلمّا ذكر ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾؛ أفادَ نفي إغوائه وكيدِه بطريق الدَّليل، والمعنى: لا أُغويهم، ولا أقدر على إغوائهم؛ لأنَّ اللّه أخلصَهم، وطهَّرهم، أو: لا يعمل فيهم كيدي؛ بسبب إخلاصِهم للّه، فكان ذكرُ الشَّيء بدليلِه أبلغَ من التَّصريح[2].

توجيه القراءات القرآنية في ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾:

تنوُّع المعنى بتنوُّع القراءةِ القرآنية

وَقرأ نافع وَعاصِم وَحَمْزَة والكسائي وأبو جعفر وخلف ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بِفَتْحِ اللّام فِي كُلِّ الْقُرْآن، وقَرَأ ابْنُ كَثِيرٍ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ ويعقوب بِكَسْرِ اللّام فيه، فوَجْهُ الْقِراءَة بصيغة المبني للفاعلِ أَنَّهُمُ الَّذِينَ أَخْلَصوا دِينَهُمْ وَعِبادَتَهُمْ والإيمانَ باللّه وبرُسُله، وابتعدوا عَنِ الرّياء وعن كُلِّ شائِبٍ يُناقِضُ الْإيمانَ والتَّوْحِيدَ، ووجه القراءة بصيغة المبني للمفعول: أَنَّهم الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللّه بِالْهِدايَةِ والْإيمانِ، والتَّوْفِيقِ والْعِصْمَةِ من الأسواء والفواحش، وَهَذِهِ الْقِراءَةُ تَدُلُّ عَلَى أنَّ الْإِخْلاصَ والْإيمانَ لَيْسَ إلّا مِنَ اللّه تَعالَى[3]، وأن إخلاص العبد دينه للّه تعالى، وبُعده عن كلِّ ما ينافي ذلك سببٌ في اجتباء اللّه له وهدايته وتوفيقه وعصمته إياه.

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/442.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 5/517.

(3) الأزهري، معاني القراءات: 2/46، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/363، والواحدي، التفسير البسيط: 12/606، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/144، وابن الجزري، النشر: 2/295.